الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

المركز الجامعي أكلي محند أولحاج
معهد اللغات و الأداب
قسم اللغة والأدب العربي

صورة الطفل في الرواية الجزائرية
ثلاثية محمد ديب أنموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الليسانس
في اللغة و الأدب العربي

إعداد الطالبة :
بوغربي رشيدة

إشراف الأستاذ :
الزبير دردوخ

السنة الجامعية : 2012/2011

كلمة شكر

الحمد لله حمدا كثيرا الحمد لله شكرا جزيلا الحمد لك خلقتنا وبين مخلوقاتك زرعتنا، الحمد لك بالعقل و النطق ميزتنا الحمد لك عدد خلقك ومداد كلماتك أعنتنا و بالعلم زودتنا

.... يقول الحبيب المصطفى صلى الله و عليه و سلم" من لم يشكر الناس لم يشكر الله".

- أشكر الله سبحانه و تعالى على توفيقه و إعانته لي في إنجاز هذا العمل المتواضع و أنا أرى لزاما علي و قد أنهيت بحثي هذا أن أتقدم بفائق التقدير و جزيل الشكر و الإمتنان إلى أستاذي المشرف الزبير دردوخ الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث .

- كما أتقدم بجزيل الشكر إلى كل من أمدني بيد المساعدة من قريب أو من بعيد إلى الأستاذ إسماعيل جبارة و الذي ساعدني بتوجيهاته السديدة و إرشاداته النيرة.

- كما أتقدم بخالص شكري إلى عمرو عباس و أشكره جزيل الشكر على كتابة و طباعة المذكرة .

- إلى كل من شجعني للمضي في هذا البحث إلى نهايته أقدم شكري و تقديري.

الإهداء:

- إلى من علمتني المشي و الكلام و بحبها أنارت لي الوجود و أزاحت كل ظلام ، إلى من بالصمت علمتني و بالنظرات أفهمتني إلى من وضعت الجنة تحت أقدامها ، إلى نبع الحنان والأمان

إلـى أمـي الغـاليـة حفظـهـا الله.

- إلى من تعلمت منه الصبر والكفاح وأخذت منه القوة و السماح ، إلى كنز العطاء و بلسم الجراح إلى أبي الغالى حفظه الله.

- إلى من تناثر حبه في روحي وكان بلسما لجروحي،إلى الذي كان يزيد في عزيمتي وقوتي فكان لي قلما يكتب و قلبا يتعاطف، إلى الذي كان حافظا للعهد و فيا للوعد ، إلى توأم روحي زوجي "أحسن" .

فلـك فـائـق حـبي و تـقـديـري.

- إلى فلذة كبدي ووردة حياتي و شمعة عمري، أنسج لك من حبي تاجا مرصعا بأجمل القبلات وأجيش العواطف،إلى صغيرتي و حياة حياتي إلى إبنتي "رحيل" حفظها الله وأنبتها نباتا حسنا إن شاء الله.

- إلى من كان لي قدوة في العلم و الإجتهاد و المثـابرة

إلـى أخـي الـعـزيـز "مـحـمـد"

- إلـى كـل إخـواتـي و أزواجـهـن
- إلـى الصـغيـرات : إيـمـان ، وسـام، صبـرينـة، دعـاء ، أنـفـال
- إلـى كـل مـن حـفـظتـه ذاكـرتي و لـم يـخـطـه قـلـمـي
- إلـى كـل هـؤلاء أهـدي ثـمـرة و عـصـارة فـكـري و جـهـدي.

رشـــيـــــدة

مقدمـــة :

إن تجربة الكتابة الروائية في الجزائر هي بالتأكيد جزء من تجربة الرواية في الثقافة العربية منذ مطلع القرن الماضي، وهي أيضا غير مقطوعة عن تطور التجربة الروائية في الآداب العالمية حيث نجد أن الرواية فن حديث في الآداب العالمية كافة فقد أجمع مؤرخو الآداب أن باميلا أو (انتصار الفضيلة) لصموئيل ريتشارد سون التي ظهرت إلى الوجود سنة 1740 هي أول رواية حديثة في العالم، كما أجمع مؤرخو الأدب على أن رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل التي ظهرت سنة 1914 هي أول رواية حديثة في العالم العربي، وأجمع النقاد والباحثون الجزائريون على أن رواية "ريح الجنوب " لعبد الحميد بن هدوقة التي ظهرت سنة 1970 هي أول رواية جزائرية حديثة مكتوبة باللغة العربية، ورغم هذا العمر القصير للرواية الجزائرية فقد أنجزت عناوين كثيرة، وأنجبت أسماء وكتاب تناولوا موضوعات متنوعة، منها موضوع الطفولة الذي يحتل مكانة خاصة في الرواية الجزائرية الحديثة، بحيث لم يقتصر هذا لموضوع على مجرد محاولات عابرة في خضم الأحداث الروائية بل تعدي الأمر إلى تخصيص روايات كاملة حملت في معظمها عناوين ذات دلالة مباشرة بموضوع الطفولة مثل:

- أطفال العالم الجديد لأسيا جبار
- أطفال الأيام الكئيبة لبنور موهوب

في حين نجد روايات أخرى أبطالها الرئيسيون من الأطفال مثل رواية مرزاق بقطاش "طيور في الظهيرة" و ثلاثية محمد ديب " الدار الكبيرة، الحريق، النول" التي وهي موضوع بحثي هذا و قد انصبت دراستي على صورة الطفل الجزائري في ثلاثية محمد ديب وأكيد أن وراء كل عمل دافع، ودافعي لاختيار هذا الموضوع قلة الدراسات المختصة بالأدب الجزائري عموما وبالرواية الجزائرية خصوصا و التي وإن وجدت فهي لا ترتقي لذلك العدد المهم في ما يقابلها من الدراسات في المجالات الأخرى، إضافة إلى ميلي الشديد إلى الأدب الجزائري بصفة عامة ورواية بصفة خاصة .

أبرز محمد ديب في ثلاثية الرائعة(الدار الكبيرة – الحريق – النول) معاناة الشعب الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية و عالج فيها مواضيع سياسية و اجتماعية و تربوية هامة، ومن بين الموضوعات الاجتماعية التي عرضها " موضوع الطفولة " و كيف كان الأطفال يعيشون في المدينة والريف قبل الحرب العالمية الثانية و أثنائها .

و إذا كان من حق الأطفال الحصول على الغذاء الكافي من أجل نموهم الجسمي والعقلي والسكن الصحي الذي يوفر لهم الأمن والراحة، وهم بحاجة أيضا إلى اللعب الفردي والجماعي وإلى تعليم صحيح ينمي معارفهم وتزدهر فيه مشاعرهم، ويعرفهم بيئتهم وتاريخهم وأبطالهم ولغتهم .

فهل تمتع الأطفال الجزائريون في فترة الاستعمار بهذه الحقوق؟

وهل استطاعوا أن يلبوا هذه الحاجات ؟

و لمحاولة تلمس الإجابة في رواية الكاتب محمد ديب، وأخذنا الطفل "عمر" كنموذج للطفل الجزائري أثناء فترة الاستعمار الفرنسي ورافقناه في البيت والمدرسة والشارع وعاينا الظروف التي كان يعيش فيها لنري إذا كانت ظروف أقرانه في الحي والمدرسة مشابهة لظروفه أو مختلفة عنها لنعرف بالضبط كيف كان يعيش الأطفال في فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

و بهذا الصدد نأتي إلى الطرح التساؤلات التالية :

- ما غرض الروائي محمد ديب من طرح هذا الموضوع ؟
- هل وفق في اختيار الموضوع أم لم يوفق؟
- هل وفق في اختيار الشخصيات المناسبة والمعبرة ؟
- هل نجح في طريقة العرض (الأسلوب) من حيث الوصف و السرد والحوار؟

هذه الأسئلة و أخري حاولت الإجابة عنها في البحث والذي اخترت له منهجا وصفيا تحليليا لأنه يعد الأنسب للموضوع الرئيسي في الرواية والمتمثل في الطفولة، فقد كانت العناصر في عناصر الموضوع نفسه الذي طرحه الكاتب في الرواية والتي استخرجتها بجمع النصوص وتحليلها مع الاستشهاد عند ذكر كل عنصر بالنص الذي استخرجتاه منه، معني ذلك تنظيم ما قاله الروائي أو إعادة بنائه بناء مستقلا، بعد أن كان متناثرا أو مرتبطا ببناء الرواية .

و قد جاء البحث في مقدمة وفصلين وخاتمة أتبعتها بقائمة من المصادر والمراجع تحدثت في المدخل بصورة موجزة عن نشأة الرواية العربية كون الرواية الجزائرية جزء لا يتجزأ منها ثم نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأسباب ظهورها.

أما الفصل الأول قد خصصته لمفاهيم نظرية وذلك بالتعريف بالرواية الجزائرية وتحولاتها قبل الاستقلال و بعده.

و في الفصل الثاني أي الجانب التطبيقي قمت بتحليل الرواية وذلك من خلال استعراض العناصر التالية:

استعراض الجزائر في ثلاثية محمد ديب وأهم شخصياتها، ثم تقديم صورة موجزة للسيرة الذاتية و الإبداعية لمحمد ديب، ثم انتقلت إلى التعريف بعمرو بيئته كنموذج للطفل الجزائري من خلال استعراض الظروف المعيشية لعمر من فقر وجوع و ضيق المسكن وبرد الشتاء وانعدام الحب والحنان، والتعليم والصحة واللعب والعمل.

و انتهيت بتقييم إجمالي لموضوع الطفولة، أما الخاتمة فقد أبرزت أهم الخطوط العامة لنتائج البحث وأعقبتها بقائمة المصادر والمراجع.

و يذكر أنه واجهتني العديد من الصعوبات في إنجاز هذا العمل منها:

ضيق الوقت ونقص المراجع في المكتبة وغياب الدراسات المختصة في هذا المجال خاصة في تحليل ثلاثية محمد ديب، فقد وجدت نفسي في كثيرا من المرات في مواجهة الرواية المترجمة لسامي الدروبي مباشرة معتمدة في تحليلها علي خبرتي البسيطة والتي تبقي محدودة.

أما هذا الجهد المتواضع فهو غاية ما استطعت من خلال عمل شاق وصعب فهو عمل لا يدعي الكمال وإنما حسبه أن يبحث إلى طريقه.

مدخـل :

نشـأة الروايـة العربيـة :

نشأت الرواية العربية حديثا متأثرة بالأدب الغربي من جهة وبالتراث العربي القديم من جهة أخرى، والرواية العربية حديثة النشأة، ولم تأت هذه النشأة بمعزل عن تأثير الرواية الأوروبية بأشكال مختلفة، وهي نشأة تختلف ظروفها بطبيعة الحال من قطر عربي إلى أخر دون أن نسهو عن جذورها المشتركة عربيا، « أولا : في صيغ القصص في القرآن الكريم والسيرة النبوية وثانيا: في البذور القصصية الأولي، في مقامات الهمذاني والحريري التي ترجمت إلى عدة لغات مثل: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، فضلا عن الفارسية والتركية، كما تكمن تلك البذور في مثل(التوابع و الزوابع) لصاحبها(ابن شهيد أحمد بن أبي مروان) ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري حيث انطلق البحث بالخصوص عن الخلاص عبر رحلة ابن القارح التخيلية»[1].

إذن الرواية العربية لم تأت من فراغ، فهي ذات تقاليد فنية وفكرية في حضارتها كما أنها ذات صلة تأثريه ما بهذا الفن، كما عرفته أوربا في العصر الحديث، خصوصا بعد شيوع مصطلح الواقعية،منذ أعلنه بلزاك في مقدمته الملهاة الإنسانية والكوميديا الإلهية.

« تعتبر مصر البلد العربي الرائد في ظهور فن الرواية وذلك في عصر النهضة أي في مطلع القرن التاسع عشر، ويرجع ذلك الاحتكاك الكتاب المصريين بغيرهم من الفرنسيين والأوروبيين وتأثرهم بهم وبأدبهم، خاصة بعد حملة نابليون على مصر وما صاحبها من بعثات علمية وترجمات وتبادل للثقافات إذ ترجع نشأة الرواية العربية إلى مطلع القرن التاسع عشر وقد كانت مصر رائدة في هذا الميدان حيث استطاعت أن تنتبه إلى هذا الفن الجديد ثم نبهت إلى ضرورة خلق مثله في مصر وفي العالم العربي>>[2]. والانطلاقة الفعلية للرواية العربية كانت من مصر، برواية "زينب 1914" لصاحبها محمد حسين هيكل، حيث يعتبرها النقاد أول رواية عربية، « فجاءت مبشرة لمرحلة جديدة في القصة العربية ألا وهي مرحلة التكوين القصصي العربي>>[3].وهكذا نشأت الرواية العربية وواصلت سيرها وتطورها مارة بعدة مراحل عبرسلسلة من التغيرات والتحولات التي كانت في كل مرة تثريها وتنضجها أكثر بذالك من التقليد إلى الحداثة.

نشأة الروايـة الجزائريـة المكتوبـة بالفرنسيـة:

---

[1] – عمرين قينة، في الأدب الجزائري الحديث، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 1994 ص195، 196.

2– ينظر الموقع الالكتروني: On-s- ommam-net

3– محمد كامل خطيب، تكوين الرواية العربية (اللغة ورواية العالم)، منشورات وزارة الثقافة دمشق، 1990 ص120.

لم تكن ولادة الرواية الجزائرية عموما من فراغ، بل كان ذلك عبر مسار طويل قطعته منذ العشرينيات، فقد ظهرت عدة أعمال عامي 1917م و 1920 ثم كان الانتشار بين سنتي 1920 و1930 لروائيين من أمثال: عبد القادر الحاج حمو و شكري خوجة، و أرخ للرواية المكتوبة بالفرنسية سنة 1920 براوية أحمد بن مصطفى القومي للكاتب أحمد بن شريف وقد عالجت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، موضوعات عديدة أهمها تعلق بالجانب الاجتماعي والسياسي والثقافي. وهكذا وجد الأدباء الجزائريين أنفسهم في مواجهة لغة الجانب الأقوى (المستعمر) فكانت سبيلهم لمحادثة هذا الطرف في ظل الظروف التي فرضها هذا المستعمر على اللغة العربية بصفتها لغة الجزائر الأم، ولا أدل على ذلك من قول ابن باديس :

شعب الجزائر مسلم و إلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

ولأن اللغة تعتبر جزءا هاما من هوية الأمة فقد استعلمت فرنسا كل الأساليب للقضاء على العربية، لقد مرت الجزائر بظروف استعمارية منذ احتلالها عام 1830 وكان للاحتلال تأثير كبير علي الحياة بمختلف ميادينها وعلى الحياة الأدبية بصفة خاصة ومنه فإن غزو فرنسا للجزائر كان غزوا شاملا «كان يهدف إلى التغلغل في أرض الجزائر و احتلالها احتلالا كاملا و دائما ولم يكتف منه الغزاة بالسيطرة على أراضيها ونهب خيراتها وإذلال أهلها فحسب، وإنما يذهبون إلى أبعد من ذالك، بالنيل من الأسس المعنوية والمميزات الحضارية للشعب الجزائري والطعن في عقيدته وتشويه قيم تراثه وطمس معالم شخصيته»[1]. و لعل هذه الظروف التي كان يعيشها الشعب الجزائري من جوع و بأس وجهل، هي ما جعلته يخوض معركة شاملة في جميع الجبهات المقاومة المسلحة، المواجهة الفكرية والجهاد السياسي. فهذه المعركة الشاملة مكنت الشعب الجزائري من مواجهة الغزو الفرنسي، وقد ا نعكس

كل هذا على الأدب الجزائري، وبحكم هذا «عاش الجزائريون جنبا إلى جنب مع الفرنسيين ولكن كخطين متوازيين على حد تعبير الأديب عبد الحميد بن هدوقة»[2].

[1] - محمد بن سمينة، في الأدب الجزائري الحديث النهضة الأدبية الحديثة مؤثراتها بداياتها مراحلها، مطبعة الكاهنة، الجزائر، 2003، ص8-9.

[2] – محمد بن سمينة، في الأدب الجزائري الحديث النهضة الأدبية الحديثة مؤثراتها بداياتها مراحلها، مطبعة الكاهنة، الجزائر، 2003، ص14

و بحكم هذا التعايش والزحف المتزايد للفرنسيين كمستوطنين، ظهرت مجموعة من الأدباء الفرنسيين ولدوا وعاشوا بالجزائر من أمثال: إزابيل أبرهاردت، روبيه،غابرييلاوديسو، جيل روا ادموند يروا، ألبير كامي، كما ابرز الصراع بين الثقافتين المحلية والاستعمارية اتجاهين رئيسيين:

أ- اتجاه محافظ يرفض التجديد و الإقبال على الثقافة الاستعمارية حتى لا يكون ذلك انتصارا للمستعمر.

ب- اتجاه مجدد، مثله مجموعة من الكتاب أقبلت على الثقافة الاستعمارية وعلي رأسها الأدب

و تبعا لهذه الظروف، فقد ظهرت مدرسة شمال إفريقيا " المعبرة باللغة الفرنسية و قد ضمت هذه المدرسة فئتين من الكتاب أما الأولى فهي تمثل جزائريين من أصل فرنسي ولدوا وعاشوا بالجزائر ومنهم إزابيل أبراهاردت، روبيله، غابرييل أديسو وغيرهم، أما الفئة الثانية فكانت من الكتاب الجزائريين من أصل جزائري والذين تمكنوا من فرض أنفسهم في مجال الأدب بعد أن اتخذوا اللغة الفرنسية وسيلة للتعبير عن هؤلاء نذكر:

1- مولود فرعون: صاحب الروايات الشهيرة: إبن الفقير Le fils du pauvre الدروب الوعرة Les chemins qui montant، الأرض و الدم La terre et le sang.

يقول عنه أحد الكتاب (إيمانويل روبلس): « فرعون لم يكن إنسانا طيبا وهادئا فحسب، بل أهم من ذلك كان مثقفا، كان يقرأ أكثر منا جميعا وكان يلتهم الكتب ببساطة، كان يظهر الإجلال للكتاب الروس ويحب فرنسيي القرن الثامن عشر »[1].

اهتم فرعون بالبيئة و تصوير عاداتها وتقاليدها إضافة إلى تصوير بؤس الشعب الجزائري في العشرينات .

2- مولود معمري: صاحب رواية الأفيون والعصا L'opium et le baton والهضبة المنسية La colline oubliéeوقد تميزت أعماله بمسايرتها للوقائع السياسية إضافة إلى تصوير المجتمع القبائلي بكل خصائصه. كما تناول الثورة الجزائرية التي إنخرط فيها بعد الحرب العالمية الثانة، «فلم يستطيع كاتب أن يصور بهذا العمق تلك المعاناة النفسية التي يعيشها الفرد الجزائري العادي والفرد المثقف والبرجوازي الصغير أمام تلك التجربة كما يصورها معمري»[2]

3- **مالك حداد:** كتب مالك حداد بالفرنسية ولكن كتابته ظلت كوثيقة ثورية تبين إيمانه بقضية شعبية صدرت له مجموعة من الأعمال الأدبية أهمها :

---

[1] - بعلي حفناوي، أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار الغرب للنشر، (دت) ص90 91.

[2] - سعاد محمد خيضر، الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، بيروت،(دت)، ص175.

- سأهبك غزالة Je t’offrirai une gazelle
- ورصيف الأزهار لم يعد يجيب Le quai du fleurs ne se répand plus

وقد دارت رواياته حول الثورة الجزائرية، كما«أن شخصية الكاتب، والثورة تشكلان نبعا غزيرا للروايات »[1]. والمعروف أن مالك حداد توقف عن الكتابة بعد استقلال الجزائر خجلا من الكتابة بلغة المستعمر.

04- كاتب ياسين: صاحب رواية" نجمة" Nadjma« ونجمة هي الجزائر الجميلة التي مزقتها مآسي و ألام حرب التحرير»و أعتبر النقاد هذه الرواية أجمل نص بالفرنسية من كاتب من أصل غير أوروبي. وعبر كاتب ياسين بصدق عن فترة مؤلمة من حياة الشعب الجزائري وقد شكلت الكتابة بالفرنسية محورا هاما في الأدب الجزائري المعاصر، فهي لغة المستعمر الذي استوطن الجزائر وسعى إلى محو وجودها. و فيما يلي نقف أمام مشاعر أولئك الكتاب وأرائهم المختلفة حول الكتابة بلغة ليست لغتهم فمنهم من شعر بالنقص تجاه لغة المستعمر كمالك حداد الذي يقول: «لقد أراد الاستعمار ذلك، لقد أراد الاستعمار ذلك لقد أراد ذلك أن يكون عندي هذا النقص، لا أستطيع أن أعبر بلغتي »[2]. ومن خلال هذه المقولة نلاحظ أن مالك حداد كان يحس بعجز وألم قايس كلما أراد أن يعبر عن أفكار وأمال ومشاعر جزائرية بلغة فرنسية.

أما الروائي محمد ديب فيؤكد أن الكتابة بالفرنسية سلاح للتعبير عن ألام الشعب وليست انتماء للثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي فيقول :«إن كل قوي الخلق والإبداع لكتابنا وفنانينا ووقوفها في خدمة إخوانهم المظلومين تجعل من الثقافة سلاحا من أسلحة المعركة .... ولأسباب عديدة فإننا – ككاتب – كان همي الأول هو أن أضم صوتي إلى صوت المجموع»[3].

أما الروائي مراد بوروبون فيري أن اللغة ليست ملكا لأحد وفي هذا الصدد يقول:«إن اللغة الفرنسية ليست ملكا خاصا للفرنسين، وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة، بل إن أية لغة إنما تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوعها للخلق الأدبي أو يعبر بها عن حقيقة ذاته القومية»[4].

ومن هنا نستنتج أن اللغة أداة تعبيرلا أكثر.

أ- تعريف الرواية لغة:

---

[1] أحمد دوغان، شخصيات من الأدب الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،ص71.
[2] نفسه، ص205.
[3] نفسه، ص85.
[4] - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986 ص71.

إن الأصل في مادة (روى) في اللغة العربية هو جريان الماء أو وجوده بغزارة أو ظهوره تحت أي شكل من الأشكال أو نقله من حال إلى أخرى ومن أجل ذلك « لفيناهم يطلقون على المزادة الرواية لأن الناس كانوا يرتون من مائها، ثم علي البعير الرواية أيضا لأنه كان ينقل الماء فهو ذو علاقة بالماء، كما أطلقوا على الشخص الذي يسقي الماء هو أيضا بالرواية»[1]. وعرفها الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه العين "«الرواية"رواية شعر والحديث ورجل رواية كثير الرواية والجمع رواة»[2].

ب- الرواية إصطلاحا :

تعرف الرواية بشيء من الصعوبة لأنها تختص بقدر كبير من الجدية من حيث الصياغة و الموضوع ومع ذلك فإن الرواية «نوع من القصص يتفاوت في الطول ويكتب نثرا واستخدمت كلمة رواية أول مرة في إنجلترا في القرن 16 عندما عرفت فيها القصة الإيطالية منها "قصص الديكاميرون" التي كتبها "بوكاشيو"غير أنه يلاحظ عادة أن لفظة الرواية بمعناه العصري حديثة العهد ولفظة القصة قديمة قدم الآداب العالمية، والرواية في القرون الوسطي سرد نثري أوشعري في اللغة الرومانية العامة وليست في اللاتينية وهي سرد نثري لمغامرات خيالية إبتداءا من القرن 16 ذات طابع خيالي عميق»[3].

الرواية هي الشكل الأدبي الأكثر دلالة على المجتمع البرجوازي، وهناك لا شك أثار أدبية يعود تاريخها إلى العصور القديمة وإلى العصور الوسطى.

ولم تبدأ في الظهور إلا بعد أن صارت الشكل التعبيري للمجتمع لبرجوازي، وقد تطورت الرواية مع مرور الزمن وتطورت« وظيفتها تبعا لذلك فكرست للإنسان والمجتمع والتاريخ الذي يضعه الفرد والمجتمع وهدف وجود الرواية كونها تناولت الإنسان والمجتمعات الإنسانية التي تعرف في الوقت نفسه، أنها دخلت التاريخ ونفهم أن تاريخ البشر مصنوع من طرفه أو على الأقل من طرف بعض المجتمعات البشرية، وتحتل فكرة التفكير حيز أساسيا في تكوين الرواية»[4].

---

[1] - عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، دار الغرب للنشر ولتوزيع،1997،ص28 29

[2] - الخليل ابن احمد الفراهيدي"كتاب العين"،تر:ع الحميد هنراوي،ج2، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط2003 1،ص165.

[3] – عمار بن زايد،الرواية العربية الجزائرية عند نقاد الإتجاة الواقعي بين النظرية والتطبيق(2001-2002) ص32 29

[4] –جورج لوكاش، الرواية، تر: مرزاق بقطاش، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،(دت)، ص7-8.

وكما تعرف الرواية في أنها شكل أدبي و نوع سردي نثري، وتتميز عن الأنواع القصصية الأخرى، «بقالب فني خاص ظهرت في فترة تاريخية معينة ولقد عبد لها الطريق كثيرا من الكتاب بتجاربهم ومحاولاتهم الفنية الأصلية فرسخوا مقومات هذا الشكل الأدبي و أرسلوا تقاليده»[1].واحتلت الرواية المكتوبة بالفرنسية مكانتها في الجزائر إلى جانب الكتابات الروائية التي يكتبها الفرنسيون المولودون في الجزائر أمثال : روبير راندو ،هنري كريا.

تحولات الرواية الجزائرية:

لقد شهدت الرواية الجزائرية منذ ظهورها تحولات عدة أسهمت في بلورتها والرواية الجزائرية كغيرها من الروايات العالمية تأثرت بالروايات المشرق العربي والروايات العالم الغربي، وهذا ما ساهم في تطورها ولم يمر على ظهورها إلا سنوات ويظهر ذلك جليا في الحقبة الاستعمارية و ما بعد الاستقلال.

أ – قبل الإستقلال:

إن الظروف التي ساهمت في ميلاد الرواية العربية هي نفسها التي عززت ميلاد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وأسهمت في بلورة اتجاهاته« فقد استطاع محمد ديب ورفاقه أن يجعلوا من اللغة الفرنسية لغة تساعد هم على التعبير عن قيمهم وأفكارهم وتقاليدهم بدلا من أن

[1] – الطاهر روابنية، اتجاهات الرواية العربية في بلدان المغرب العربي (تونس ، المغرب ، الجزائر) 1985–1986، ص2–3.

تسلب منهم شخصيتهم و قيمتهم كما أرادت لهم فرنسا وبدلا أن تكون تشويه تلك القيم ولتقاليد أصبحت معهم لغة قادرة على التعبير عن تلك الشخصية الجزائرية بقيمها وتقاليدها»[1].

فالرواية الجزائرية آنذاك كانت نتاجا للصراع القائم بين الشعب الجزائري من جهة والمستعمر من جهة أخرى وكانت الإحاطة بكل الجوانب السياسية أو بمعظمها والتي سادت قبل الاستقلال و كان لها دور رئيسي في ظهور الرواية الجزائرية واكتمال معالمها أمرا في غاية الصعوبة بناءا على ذلك كان من الضروري اللجوء إلى بعض العمليات المنهجية التبسيطية التي تمليها البحث الأدبي، وهي تقسيم هذه الفترات التاريخية ولو على مستوي شكلي مع العلم أن هذه الفترات هي حلقات مترابطة في سلسلة واحدة، و رئيسية هي التاريخ.

هناك ثلاث فترات كان لها الدور الحاسم في بلورة الوعي الجماهيري واستقلال الجزائر و تحديد هويتها التاريخية وهوية الاتجاهات الروائية في الآن ذاته.

أولها: مرتبط تحديدا، بثورة الفلاحين سنة 1871م التي كانت لها مساهمات عظمي في تشكيل الفكر الاشتراكي في الجزائر، و تكريسه من خلال الإسهامات التي قدمتها بشكل مباشرأوغير مباشر بتراثها الثوري .

ثانيا: فهي ذات صلة مباشرة بانتفاضة 1954م الجماهيرية التي أيقظت الإحساس القومي لدي الشعب و دفعته إلى الاقتناع من خلال الحياة اليومية ، بأن الاستعمار سيضل استعمارا يستهدف تذليل الشعب و تركعيه .

ثالثا: أما الفترة الثالثة والأخيرة، فهي دخول الحركة الوطنية في نهج جديد أدى بها في النهاية إلى تجميع كل قوتها الممزقة وهذه الفترة الأخيرة شهدت قفزة نوعية وكمية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية في الوقت الذي لم تظهر فيه «إلا روايتان باللغة العربية الأولي "الطالب المنكوب " لعبد المجيد الشافعي 1951و الحريق لنور الدين بوجدرة 1957.

و يرجع بعض النقاد ظهور الرواية العربية في الجزائر إلى 1951 حيث صدرت رواية الطالب المنكوب لعبد المجيد الشافعي وهي رواية رومانسية في أسلوبها وموضوعها كما أنها ساذجة في طريقة التعبير »[2]

---

[1] – واسيني الأعرج ، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ص226.

[2] – لينة عوض، تجربة الطاهر وطار الروائية بين الإيديولوجية وجمالية الرواية، 2003 ص(9–10).

ومنذ هذا التاريخ لم تظهر أي رواية عربية جزائرية إلا في1967 بعد الاستقلال و يمكن إرجاع تأخر الرواية الجزائرية إلى:

– الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في الجزائر في ظل الاستعمار.

– الصعوبات في الطباعة و النشر وغيرها.

لهذا كله لم تظهر الرواية العربية الجزائرية إلا في بداية التسعينات التي شهدت تغيرات عدة.

ب– بعد الاستقلال:

سعت الرواية الجزائرية في السبعينات إلى تجسيد الصراع بين التيار الاشتراكي والتيار الإسلامي ويظهر الدين في سائر الأعمال«بوصفه مرتكزا للتيار الإسلامي يؤوله لما يتماشي وأهدافه السياسية، وتذهب بعض الأعمال منها أعمال "الطاهر وطار" إلى نقل الخطاب السياسي الإيديولوجي باستعمال الشعارات الدينية والآيات القرآنية مما يجعلها في كثيرمن الأحيان عرضة للمباشرة والتقريرية ولا شك أن كثيرا من جيل السبعينات الذين جربوا كتابة القصة القصيرة ثم الرواية بعدها كانوا قد تأثروا بالطاهر وطار الأديب الذي يمثل النموذج الاشتراكي الواعد»[1].

ففي الفترة التي نالت فيها البلاد استقلالها كان يسود«التقاطب بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي ولقد اختارت الجزائر منذ البداية الانحياز إلى المعسكر الاشتراكي فأخذت الأفكار الاشتراكية تتسرب إلى العقول وقد أدي هذا الوضع الجديد إلى انتقال حزب الطبيعة الاشتراكية من نشاط سري إلى نشاط نصف علني في السبعينات و نشطت حركة الإخوان المسلمين مستفيدة من المكانة السياسية واستفادت حركة الإخوان في الجزائر من الإرث الذي خلقته حركة الإصلاح في الجزائر وفي مقدمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هذا

بأشكال متعددة كان منها الشكل الأدبي »[2]، و بما أن التيار الإسلامي قد اتجه نحو الشعر فقد وجدنا أن أنصار التيار الاشتراكي هم الذين برزوا أكثر في كتابة الفن القصصي و في تجربة الكتابة الروائية .

ظهر هذا الفن النثري في الأدب الجزائري متأخرا قياسا مع الفنون الأدبية الأخرى على أنه كانوا في بديته الأولي مكتوبا بالغة الفرنسية و يرجع إلى الظروف التاريخية التي عاشتها الجزائر وإلى منابع الثقافة الفرنسية التي تشرب منها بعض كتابنا.

---

[1]– عبد الحميد بن هدوقة، الملتقى الدولي التاسع للرواية، دار هومة، الجزائر، ص176–177.

[2] - عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، شركة دار الأمة للطباعة و النشر، الجزائر، 173–175.

غير أن النشأة الجادة للرواية الجزائرية الفنية الناضجة ارتبطت برواية«ريح الجنوب" وكتبها عبد الحميد بن هدوقة في فترة كان الحديث السياسي جاريا بشكل جدي عن الثورة الزراعية، أنجزها في 05 نوفمبر 1970 تزكية للخطاب السياسي الذي كان يلوح بآمال واسعة للخروج بالريف من عزلته ورفع الضيم عن الفلاح، ورفع كل أشكال استغلال الإنسان»[1] .

السيرة الذاتيـة و الإبداعيـة للروائي محمد ديـب:

محمد ديب كاتب وروائي جزائري كبير ولد بالغرب الجزائري بمدينة تلمسان يوم 21 جويلية 1920، عاش طفولته فقيرا ثم يتيما بعد أن توفي والده وهو لا يزال في العاشرة من عمره، لكن ذلك لم يوقف من عزمه على متابعة دراسته بجد وكد في مسقط رأسه، ولما بلغ سن التاسعة عشرة اشتغل بالتعليم ثم انتقل سنة 1942 للعمل في السكك الحديدية، ثم عمل محاسبا ثم مترجما، ثم مصمما للديكور ثم حرفيا في النسيج يصنع الزرابي لبعض معارفه لبيعها والعيش من ثمنها.

وبعد أن تنقل في كل هذه المهن انتقل سنة1948 إلى العاصمة بالتحديد مدينة البليدة وقضى حوالي شهر في سيدي مدني، تعرف على مجموعة من الأدباء الجزائريين والفرنسيين منهم : ألبير كامو– مولود فرعون و جان سيناك و غيرهم ليزداد اهتمامه بالكتابة و التأليف .

وفي سنة 1949 انضم إلى نقابة الفلاحين الجزائريين وسافر في مهمة إلى فرنسا للدفاع عن حقوق عمال الأرض الجزائريين.

و منذ سنة 1950 بدأ في العمل الصحفي وأشتغل بجريدة "الجزائر الجمهورية" رفقة الكاتب الجزائري الكبير كاتب ياسين.

ونظرا لكتاباته النارية الشرطة الفرنسية تتابعه وتحذره بسبب مقالاته الوطنية التي كان مناهضا فيها للتواجد الاستعماري الفرنسي في الجزائر .

فنفي بسبب ذلك، وبعد ذلك جاب محمد ديب بلدانا كثيرة ومدنا عديدة فمن باريس إلى روما ومن هلنسكي إلى عواصم أوربا الشرقية، وطاب المقام بالمملكة المغربية عام 1960.

في عام 1952 صدرت أول رواياته بالفرنسية وهي La grand maison الدار الكبيرة من دار النشر – السوي بباريس –Seuil

كان نجاح الرواية سريعا ومفاجئا للناشر وفي أقل من شهر نفذت الطبعة الأولي و صدرت الطبعة الثانية.

وفي سنة 1954 و في نهاية أوت صدرت رواية "الحريق" L’incendié

[1] – . ينظر الموقع الإلكتروني : www.mareefa.org/index.php

Le métiere à tisser و هي الجزء الثاني من الثلاثية، والجزء الثالث"النول" عام 1954. وبهذه الثلاثية جعل ديب من الكتابة بالفرنسية كتابة وطنية وباتت فيها صورة الوطن الجزائر كبيرة وواضحة وهي تخرج من حرب إلى حرب أشد ضراوة، جعلت شخصيات الرواية تؤسس قناعاتها النضالية ليس فقط انطلاقا من خيارات ظرفية و لكن من طلب التجربة الإنسانية .

1956 محمد ديب يغير عمله مرة أخرى ليعمل محاسبا لدى الخواص، 1959 صدور روايته الرابعة "صيف إفريقي" و في هذه السنة السلطات الفرنسية تطرد محمد ديب من الجزائر.

1961 صدور أول مجموعة شعرية لمحمد ديب، و يعود ككل المنتصرين إلى الجزائر

و في السنة ذاتها أصدر أول رواياته الشهيرة– من ذا الذي يذكر البحر – فكان التحول ملموسا في مساره الأدبي، لأنه لأول مرة يكتب محمد ديب رواية شبيهة برواية علم الخيال .

و في سنة 1963 نال في الجزائر جائزة الدولة التقديرية للأدب برفقة الشاعر محمد العيد آل خليفة، و كان أول كاتب مغاربي يحصل على جائزة الفرانكفونية و ذلك عام 1964 حيث تسلمها من الأكاديمية الفرنسية تنويها بأعمالها السردية الشعرية.

وفي سنة1966 صدور عمل إبداعي – الجري على الضفة الوحشية – أنها الرواية السادسة للكاتب[1].

وفي سنة 1968 محمد ديب ينشر روايته السابعة رقصة الملك، وفي سنة 1970 صدور روايته الثامنة–الحرب في بلاد البرابرة– وبعدها تصدر المجموعة الشعرية الثانية – كتاب الصيغ– وفي سنة973 محمد ديب ينشر روايته التاسعة – معلم الصيد .

وفي سنة 1974 محمد ديب يدعى كأستاذ شرفي بجامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وفي سنة 1975 يسافر إلى فلندا للمشاركة في ملتقي أدبي وفي نفس السنة ينشر مجموعته الشعرية الثالثة – العشق كله–.

وفي سنة 1976 سافر محمد ديب إلى أكلاهوما حيث دعي ليكون عضو في كلية تحكيم احدي الجوائز الأدبية العالمية بالولايات المتحدة الأمريكية و في سنة 1981 دار النشر الفرنسية – السوي – بباريس تطلب من محمد ديب أن يعيد النظر في طريقة كتاباته بحجة أن كتبه أصبحت غير رائجة – محمد ديب يرفض و يطالب دار النشر بحقوق مؤلفاته و تبدأ الأزمة.

وقد أسر محمد ديب لأحد أصدقائه بشان هذه الأزمة " بقي لهم أن يطلبوا أن يطلبوا مني تغيير اسمي " أنا أعرف أن اسم محمد أصبح يقلق الغرب وبسبب هذه الأزمة يعود إلى ضغوط

[1] - ينظر الموقع الإلكتروني www.mareefa.org/index.php–

بعض المثقفين والسياسيين الفرنسيين تفطنوا إلى كتابات محمد ديب بأنها لا تخدم مشروعهم التوسعي ومعظمها يدخل في إطار التوعية لأبناء بلاده والكشف عن نوايا المستعمر، إضافة إلى توظيف محمد ديب لجميل تراثنا العربي والإسلامي في كتاباته فكما هو متعارف عليه محمد ديب كان سفيرا لحضارة عربية بجواز سفر مزور ألا و هو اللغة الفرنسية.

وفي سنة 1982 محمد ديب ينزل بالجزائر العاصمة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائرية تحاول شراء حقوق نشر كتبه بالفرنسية، حينها مرض السكر ينهش جسم الكاتب الهش المفاوضات تفشل فالوزير الأول الجزائري ووزيره للثقافة يرفضان تحويل أي سنتيم لمحمد ديب أو حتى للمعالجة، و يسافر محمد ديب إلى منفاه مرة أخري وفي سنة 1984 المرض العضال يكاد يفتك بالكاتب الكبير، بعض الأصدقاء لمحمد ديب يبلغون بعض المسؤولين الجزائريين لا أحد يستجيب لكن السلطات الفلندية تتدخل و تنقذه بمنحة محمد ديب من جهته يقوم بترجمة الشعر الفلندي إلى الفرنسية .وكان يقول عن نفسه متحدثا عن هويته وعلاقته باللغة :" إن أخيلتي و تصوراتي نابعة من اللغة العربية ،فهي لغتي الأم، إلا أنها مع ذلك تعتبر موروثا ينتمي إلى العمق المشترك أما اللغة الفرنسية فتعتبر لغة أجنبية مع أني تعلمت القراءة بواسطتها، وقد خلقت منها لغتي الكتابية "[1].

وبعد أن كتب الرواية و القصة و الشعر و المسرحية و عاش أزيد من 80 سنة توفي الأديب الجزائري محمد ديب يوم 02 ماي 2003 بسان كلو إحدى ضواحي باريس، وقد أوصي قبل وفاته بدفنه علي التراب الفرنسي، هكذا مات محمد ديب في صمت كبير، كما عاش في شموخ كبير ودفن في إحدى ضواحي باريس بوجود حفنة من الأصدقاء المقربين حسب وصيته ودونما ضجة رسمية مزيفة[2].

الجـزائـر في ثـلاثيـة محمـد ديــب:

صور محمد ديب في ثلاثيته (الدار الكبيرة ، الحريق، النول) مرحلة من تاريخ الجزائريين سنتي 1939 – 1942 فتجري الأحداث في الجزء الأول بإحدى دور مدينة تلمسان وهي دار سبيطار التي تقطنها العديد من العائلات الجزائرية .

بينما ينقلنا في الجزء الثاني إلى عالم الفلاحين بقرية مجاورة لتلمسان وهي "بني بوبلان" ويصل بنا أخيرا إلى أحد مصانع النسيج ليبين ألام و أمال عماله.

---

[1] -ينظر الموقع الإلكتروني www.mareefa.org/index.php-

[2] **ينظــر المــوقــع الإلكتـــروني:** www.manefa.org/index.php-

تشكلت صورة الجزائر في الثلاثية من خلال شخوصها الذين أذلهم المستعمر وسلبهم كرامتهم وإنسانيتهم وأراضيهم ليصبحوا أجراء في أراضيهم، إضافة إلى سياسة التفقيرالتى مارسها المستعمر على الشعب الجزائري.إذ تكون الشخصيات في رحلة بحث عن " الخبز" أو الجوع بمفهومه القريب والبعيد. ويستهل روايته الدار الكبيرة بجملة«أعطيني قطعة خبز»[1]. وهكذا يتابع الأطفال في المدرسة رحلة بحثهم عن الخبز، منبهرين بما يخبرهم الفتى صاحب المكانة العالية إدريس خوجا عن أكله، فيقول الكاتب:« كان الأطفال يقفون زائغي الأبصار مبهوتين وهم يستمعون إلى حديثه بذكر هذه الأطعمة إن الأعين كلها تشخص إليه وتفحصه تفحصا غريبا ويسأله أحدهم : أكلت وحدك قطعة كبيرة من اللحم هكذا ؟ أكلت وحدي قطعة من اللحم هكذا .وخوخا مجففا ؟ »[2].

«لقد قتل الجوع في أولئك الأطفال أحلامهم التي لم تعد تتعدى الحصول على قطعة خبز. وبمقابل حديث إدريس عن الأطعمة المختلفة، نجد عيني والدة عمر "بطل الرواية " تصب في طبق معدني كبير الحساء المغلي، و هو حساء بالشعيرة المفتتة والخضار ولا شيء غير هذا ...و يبلغ الأمر في كثير من الأحيان أن تكتفي بصب الماء في الحلة فيظل يغلي لغاية نوم أطفالها، وكانت تلجأ لها نساء كثيرات ...و بهذا كانت أسر الدار الكبيرة تخادع الجوع ويخادعها الجوع مرات عديدة»[3].

إنها الإنسانية المهانة من الاستعمار فإذا الشخصيات في دار سبيطار تتحول إلى كائنات بلا كيان حلمها و شبحها هو الخبز و كيفية الحصول عليه.

ولأنهم لا يحصلون عليه فهم يتحايلون عليه، يقول محمد ديب:«كانت عيني فيما مضى من زمان تستطيع أن تهدئهم بحيلة ماكرة، كانوا يومئذ صغارا كان يكفي أن يكون عندها قليل من فحم عند المساء حتى تملأ الحلة ماء وتدع الماء يغلي على النار و تطلب إلى أولادها الذين ينتظرون بفارغ الصبر أن يهدؤوا وتقول لهم: أصبروا قليلا فيغلبهم النعاس لا حيلة لهم فيه»[4].

وتواصل الشخصيات صراعها مع الجوع و مخططاته لكي تهزمه عن طريق التقشف في المال الزهيد الذي تجنيه مريم وعيوشه. وفي هذا الصدد يقول محمد ديب:" «ربما استطعنا أن نشتري قليلا من اللحم من حين لأخر أليس كذلك ياأمي ؟ربما نستطيع أن نشتري بيضا إنه أرخص ثمنا من اللحم ما رأيكم أنتم؟»[5].

---

[1] - محمد ديب، الدار الكبيرة، الحريق، النول،(مرجع سابق)، ص15.
[2] - نفسه ، ص21.
[3]- عكاشة شأيف، نظرية الأدب ،ديوان المطبوعات الجامعية ،ج3،(دت)،ص22.
[4]- محمد ديب الدار الكبيرة،الحريق، النول،(مرجع سابق)، ص46
[5]- نفسه ، ص 18

ويواصل الروائي رحلته مع عائلة عيني التي تحاول التصرف بذلك المبلغ البسيط من المال ، فيبرز رأي عمر ووالدته (عيني) اللذان يرفضان رأي الفتاتين فيقول ديب: «لكن عيني و ابنها عمر يرفضان رأي الفتاتين ويصران على أن ضآلة المبلغ الذي يجنيانه من عملهما لا يكاد يغطي مصاريف الدقيق الواجب شراؤه كل يوم. و الخبز عند عمر كل شيء و يجب الحصول عليه ....إن أحلامه لا تذهب إلى أبعد من هذا... »[1].

وهكذا شكل الجوع مدار الجزء الأول من ثلاثية محمد ديب ليبدأ الجزء الثاني "الحريق" عام 1954، إنه عام الثورة و هو أيضا عام لم يخل من الجوع، إذ يستهل الروائي هذا الجزء بالحديث عن الجوع فتسأل (ماما) زوجة (قارة الثري) عمر«أأنت جائع؟ نعم»[2]. وهكذا يقدم ديب الوضع العام للفلاحين وهم يقدمون خيرات أرضهم للمستعمر كما يصف حالة فقرهم الذي تبينه أكواخهم.

ويظل الجوع يطاردهم وهم يعملون بأجور زهيدة جدا و يبدأ الحديث عن الجوع يضمحل في الجزء الثالث (النول) رغم الفقر الذي يستمر بين العمال حيث تبدو ظاهرة الفقر مرسومة على ملامح عما النسيج بالرغم من حصولهم على الأجرة كل شهر ... فهل استطاع أحدهم أن يغير من حالته المادية منذ دخل مصنع النسيج ؟ دخل فقيرا معدما و لا يزال فقيرا و قد بلغت رأفة العمال على ما هم فيه من عوز إن راح بعضهم ينظر إلى عمر نظرة إشفاق يوم دخل المصنع فهم يعلمون مسبقا أن مصير عمر يشبه مصيرهم، سيظل فقيرا[3].

فقد ترك عمر الدراسة ليلتحق بالعمل في المصنع في سن مبكرة ، إنه الجوع مرة أخرى يهدد الكبار والصغار و قد برع ديب في تصوير بؤس العمال،هذا البؤس الذي ارتبط بمحاولات المستعمر للقضاء على شخصية الجزائريين من خلال سياسة التجويع و القهر الدائمين و من خلال عمال مصنع النسيج تتواصل المطالبة بالشخصية الوطنية و البحث عن الهوية فيصرخ أحد العمال حمدوش:«أنتم الشعب ، الشعب الذي يصنع كل شيء و يعلم كل شيء»[4].

لقد صارت هذه الشخصيات أكثر وعيا بمصيرها و مطالبها التي تتعدى الحصول على الخبز بل هو الوطن المغتصب الذي على الجميع أن يسعى لاستعادته.

وهكذا فإن صورة الجزائر في ثلاثية محمد ديب لم تكتمل إلا بحديثه عن هويتها و عن الشعور بالوطنية الذي أظهرته شخصيات الثلاثية . يقول ديب : «وما السر في اختيار عنوان

1- نفسه ، ص22

2- نفسه ، ص11

3- عكاشة شايف، نظرية الأدب، ديوان المطبوعات الجامعية، ج3، (دت)،ص51.

4 - محمد ديب ، الدار الكبيرة، الحريق ، النول،(مرجع سابق) ، ص22.

الدراسة والوطن،لماذا إغتاظ عمر عندما سمع إبراهيم ينطق كالببغاء ، فرنسا هي أمنا الوطن ، هل كان يعلم أن فرنسا ليست بوطنه الحقيقي؟»[1].

لقد أراد ديب أن يبين مدى تمسك الجزائريين بهويتهم و بوطنهم .يقول :« قال المعلم حسن : الوطن هو أرض الأدباء ، هو البلد الذي نسكنه منذ أجيال،هو كل ما علي هذه الأرض من سكان و كل ما يوجه فيها بوجه الإجمال،ذلك هوالوطن وتلك هذه شروط الوطنية فهل لعمر وطن و أين هو ؟ »[2].

إن المعلم حسن يسعي لإيضاح مفهوم الوطن و الأطفال ، فشخصيات ديب صارت أكثر نضجا و إيمانا بأن الشعب وحده القادر على التغيير و إخراج المستعمر،إنها ثقته التي و ضعها في شخصياته مصورا بطولاتها و هذا يجعل صورة البطولة في الثلاثية جماعية ومن هنا فقد كتب محمد ديب ثلاثيتة محاولا إبراز موقفه من ظروف الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية راصدا الحالة الاجتماعية و السياسية أنذاك .

ورغم اتخاذه من الفرنسية وسيلة التعبير، إلا أن روح الثلاثية كانت عربية لأنه غاص في الواقع الجزائري رغم اللغة الفرنسية التي لم يكتب إلا بها مؤكدا أنها ليست انتماء لفرنسا إنها مجرد وسيلة تعبير، استطاع من خلالها تصوير ظروف الجزائر في فترة حالكة من تاريخها تحت وطأة الاستعمار الفرنسي بكل جبروته.

و قد أشاد بالثلاثية كل الذين تناولوها بالدراسة مؤكدين على روحها العربية حيث تقول يمني العيد :« إنها أجمل ما كتب ديب في الأدب الروائي الجزائري بل من أجمل الروايات في الأدب الواقعي، ، لذا لا أجد أي حرج في تقويمها كواحدة من الروايات العربية»[3].

شخصيات ثلاثية محمد ديب : "الدار الكبيرة –الحريق– النول"

لنستعرض بعض الشخصيات ثلاثية محمد ديب والمواضيع التي طرحت من خلال هذه الشخصيات. "عيني، عمر، حميد سراج، الجدة، ماما بنت قدري، خضرة، سعيد، قارة علي بن أيوب، عكاشة "و غيرهم، إن عيني وخضرة وماما بنت قدري لا يمثلن أنفسهن بل يمثلن المرأة الجزائرية في المدينة والريف، بضعفها وجهلها وبؤسها، وعزمها وكفاحها من أجل اللقمة بانفعالاتها وغضبها وحزنها وبؤسها وتمسكها بالمبادئ كما يمثل عمر مع سعيد الطفولة الجزائرية بمعاناتها وعذابها وحرمانها من حقوقها في الغذاء والتعليم و لصحة والأمن والحياة الكريمة و تمثل الجدة

---

[1] - نفسه، ص23 .

[2]- نفسه، ص25.

[3] - يمنى العيد ، فن الرواية العربية بين خصوصية الخطاب و تميز الحكاية ، دار الادب ، ط1، 1998،ص53-54.

الشيخوخة الجزائرية ومعاناتها، ويجسد حميد سراج القيادة الوطنية السياسية والنقابية في مواجهاتها الاستعمار وفي محاولة تنظيمهم للعمال والفلاحين،ويجسد قارة على الخيانة والانتهازية، و يمثل بن أيوب و فلاحو "بني بوبلان" الفلاحين الجزائريين اللذين تكالب عليهم المعمرون والسلطات الاستعمارية و الخونة لنزع أراضيهم، وكذلك يمثل حمدوش وعكاشة العمال الجزائريين المضطهدين.

ومن خلال استعراضنا لبعض شخصيات ثلاثية محمد ديب"الدار الكبيرة –الحريق–النول" يتبين لنا أن الكاتب أراد أن يبين حالة الشعب الجزائري في زمن الاستعمار في نهاية الثلاثينيات و بداية الأربعينات من خلال بعض ممثلين عن شرائحه الاجتماعية والشعب الجزائري يتشكل من (الأطفال الشباب الرجال – النساء– الشيوخ–عمال –فلاحين– تجار ومعلمين وبطالين وغيرهم إضافة إلى سكان الريف والمدينة، وحسب الموقف من المستعمر من الوطنيين–المناضلين و الخونة إلى جانب المعمرين الفرنسيين وممثلي السلطة الاستعمارية الذين يمارسون الاعتقال والتعذيب ، وهكذا نجد كل شريحة تشكل موضوعا قائما بذاته، وفي نفس الوقت مع جزء من الموضوع الأساسي لكن ما يهمنا في دراستنا هو موضوع الطفولة كنموذج للدراسة من خلال مرافقتنا "لعمر"في تحركاته بين البيت والمدرسة والشارع والمدينة الريف ،لنري كيف عالج الروائي "محمد ديب" موضوع هذه الشريحة الاجتماعية ومعاناتها في زمن الاستعمار لنجد أن الكاتب تحدث عن جوع الأطفال و عذابهم و جهلهم و حرمانهم من اللعب والحب و الحنان و استغلالهم في العمل.

التعريف بعمر و بيئته كنموذج للطفل الجزائري :

نشأ عمر في بيئة فقيرة بائسة في مدينة تلمسان ومات أبوه "أحمد دزيدي " الذي كان يعمل نجارا، و لكنه كان مدمنا علي الشراب فمرض و مات« و لقد مات منذ مدة طويلة فليس يحتفظ ابنه عمر بأي ذكري عنه، حتى لكان الصبي نشأ بلا أب»[1].

وأمه عيني تعيله و تعيل أختيه الطفلتين "عيوشة"و "مريم" و أمها المشلولة و ذلك بالعمل على ماكنة الخياطة.

« لقد بدأت عيني تستغل ماكينتها لإعالة أسرتها منذ خمسة عشري ما ،أي قبل وفاة زوجها لمدة طويلة» [2].

1- محمد ديب، الدار الكبيرة، الحريق، النول، (مرجع سابق)، ص64.

2 - نفسه ، ص 108.

و كانت تعمل لحساب رجل إسباني اسمه "جونزاليس" يستغل جهودها هي و أمثالها ورغم أنها تعمل ليل نهار علي ماكينتها لخياطة الأحذية ، فإن ما تتقضاه كأجر لا يكفي إلا لثمن الخبز وهي تشكوا ذلك لأولادها « ها أنتم ترون كم يكلفنا الخبز وحده ،فلا تفكروا إذن فيما عدا الخبز، و إلا كنتم تمنون أنفسكم عبثا »[1].

و من هنا نلاحظ أن بيئة عمر كانت بيئة فقيرة مهمشة تمثل غالبية الشعب الجزائري البيئة التي لا تستطيع أن توفر لأطفالها الحقوق الأساسية، سنحاول تفحص بعض الحقوق ونصيب عمربطل الرواية والأطفال الجزائريين بصفة عامة في المدينة والريف من خلال بعض العناصر نذكر منها:عمر و الجوع- عمر و ضيق السكن - عمر و الفقر (اللباس)، وعمر وبرد الشتاء(الدفء) عمرو انعدام الحب والحنان - عمر والتعليم - عمر والمرض- عمر و اللعب - عمر و العمل.

1. عمــر و الجــوع :

نرى عوارض الجوع ظاهرة على الأطفال سواء في المدرسة أو في البيت المتمثل في "دار السبيطار "و نلاحظ سعيهم للحصول على ما يسد رمقهم. تبدأ الرواية في المدرسة حيث نرى الصغير "عمر"ذا السنوات العشر يراوغ و يتسابق مع غيره من الأطفال من أجل الحصول على قطعة الخبز: « هات قليلا مما تأكل قال عمر ذلك ،وهو يقف أمام "رشيد بري،ولم يكن عمر وحيدا فإن شبكة من الأيدي قد امتدت تلح منها في طلب نصيبها من الصدقة .فاقتطع رشيد لقمة صغيرة من الخبز فوضعها في أقرب راحة إليه...وأنا...و أنا ...ارتفعت الأصوات متوسلة فأحتج رشيد وحاولت الأيدي كلها أن تنتزع من يده الخبز »[2].

وحين لم يحصل عمر من رشيد على الخبز،حصل عليه من صبي أخربا القوة.

« ومضى إلى مكان أخر، كان هناك صبية آخرون يقضمون خبزهم، فطاف بينهم مراوغا خلال مدة طويلة، ثم انقض على زحمتهم بوثبة واحدة، فأنتزع رغيف صبي قصير منهم وأسرع يختفي في وسط المدرسة حيث ابتلعته زوبعة اللعب والصراخ. ولم يسعى الصبي القصير الذي كان ضحية هذا الاغتصاب إلا أن أخذ يزعق في مكانه لا يبارحه»[3].

---

[1] - نفسه ، ص111.
[2] - محمد ديب ، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول،(مرجع سابق)،ص15.
[3] - نفسه، ص16.

والخبز في دار السبيطار عملة نادرة ناهيك عن اللحم والخضروالفواكه وفي كثير الأحيان كانت عيني تطبخ لأولادها عمر ومريم وعيوشة حساء تقدمه لهم من دون خبز، وهذا أقصي ما تستطيع تقديمه.«إن الفلفل الذي تضيفه عيني إلى الحساء بهار يلذع ألسنتهم ، يشربون ثم يشربون فتنتفخ بطونهم و من أجل هذا إنما تصنع عيني حساء كهذا الحساء.سرعان ما نفذ الحساء الذي وصفته عيني على المائدة فأصبحت الملاعق لا تقذف إلى قاع الصحن»[1].

و كانت في الماضي تلجأ إلى الحيلة عندما لا يكون لديها ما تقدمه لهم :

«كانت عيني فيما مضى من الزمن، تستطيع أن تهدأهم بحيلة ماكرة كانوا صغارا كان يكفي أن يكون عندها قليل من فحم عند المساء حتى تملأ الحلة ماء، و تدع الماء يقلي على النار، وتطلب إلى أولادها الذين ينتظرون بفارغ الصبر، أن يهدأوا قليلا، إنها تقول لهم من حين إلى حين: " أصبروا قليلا . سيكون الطعام جاهزا بعد لحظة، فيما هي تقول لهم ذلك يغلبهم النعاس الذي لا حيلة لهم في دفعه، فتطبق أجفانهم بثقل كأنه الرصاص و كانوا ينامون ثم يفرغون في سبات عميق. إن صبرهم و لا يمكن أن يدوم مدة طويلة نعم كانت الحلة لا تحوي إلا على ماء يغلي»[2].

و لم تكن عيني و حدها تلجأ إلى الحيلة مع أطفالها، فهناك غيرها : «كانت زليخة التي تسكن تحت، تلجأ إلى هذه الحيلة نفسها مع أولادها و هم أربعة صبيان لا يكادون يقوون على الوقوف على أقدامهم الرخوة، كان الخبز يعوزها في أحيان كثيرة،كما كان يعوز عيني، و كانت تصرخ قائلة لأبنائها: ماذا تريدون مني ؟ ماذا تريدون من هذه المسكينة ؟ إنكم تجلبون لي العار أين عساي أبحث لكم عن الخبز؟ . و كانت تتناول عندئذ قبضة من الفاصولياء الجافة فتقذفها لهم في أرجاء الغرفة، فيرتمي الصغار على الأرض يبحثون عنها، حتى إذا عثر أحدهم على واحدة من تلك الحبات البيضاء المبعثرة راح يقضمها، وكان الصغار يهدأون وكانت الأم تنعم بالراحة إلى حين . »[3]

لم يكن الفقراء والجوع مقصورا على أطفال دار السبيطار أو سكانها ،بل كان منتشرا في أحياء المدينة كلها: «إن عمر يعرف كثيرا من هؤلاء الناس: أهله و جيرانهم وجميع الذين يملؤون دار السبيطار و يملؤون دورا أخرى كدار السبيطار، وأحياء أخري كالحي الذي تقع فيه دار السبيطار كل أولئك فقراء، ما أكثر عدد هؤلاء الفقراء»[4]

---

1 - نفسه ، ص49.

2 محمد ديب ، الدار الكبيرة ، الحريق، النول،(مرجع سابق)،ص50.

3- نفسه، ص51.

4- نفسه، ص99.

و كان البعض يأكل من قمامة المدينة.

«على أن كثيرا من الصبية ومن الرجال أيضا،كانوا يستخرجون قوتهم من زبالة المدينة»[1].

أما في الريف فالفلاحون و أبنائهم غالبا ما يعانون من المجاعة «والفلاحون كثيرا ما تلم بهم المجاعة»[2].

لذلك كان سكان القرى يضطرون إلى العيش علي الفضلات :« إن سكان هذه القرى يبحثون بين الزبالة عما يقيمون به أودهم»[3].

و نرى عمر رغم عزة نفسه يضطر أحيانا إلى نبش الفضلات بحثا عن القوت:«أما عمر فكان يشعر بموت في نفسه من طول ما نبش أكوام الفضلات في السوق المسوقة ،كان يذهب إلى السوق بحثا عن خضر يمكن الانتفاع بها فإن عثر على شيء فيها أخذ يلتقطه و يدسه في قفته"[4].

وإذا كان عمر يمثل الكثرة من الأطفال الجزائريين الذين يعضهم الجوع بنابه كل يوم فإن هناك فئة أخري هي القلة من أبناء التجار والملاكين والموظفين كانت تحس بالتخمة و كان أحدهم يعرض المأكولات أمام أقرانه الصبية في المدرسة متباهيا:

«كان أحدهم، اسمه إدريس بلخوجا، وهو صبي غبي متكبر، لا يعرض أثناء كل فترة من فترات الاستراحة بين الحصص، خبزا فحسب وذلك وحده شيء كثير، بل كان يعرض كذلك فطائر و مربيات.

4- نفسه، ص350

2 – نفسه ، ص162.

3– محمد ديب ، الدار الكبيرة ، الحريق، النول،(مرجع سابق)،ص 350.

4- نفسه، ص124.

كان يسند بظهره إلى جدار، و من حين إلى حين يميل أحد الصبية على الأرض ليلتقط ما يسقط من فتات.ما رأي أحد إدريس يعطي شيئا في يوم من الأيام»[1].

2. عمر وضيق المسكن :

معظم العائلات كان مسكنها حجرة واحدة:

« كانت "عيني" وأولادها يسكنون بعضهم فوق بعض، كسائر الناس هنا، إن دار سبيطار كخلية نحل، و قد انتقلت الأسرة من بيت إلى بيت عدة مرات، و كانت في كل مرة تقع على مسكن كهذا المسكن،ذي حجرة واحدة»[2] .

ولا يختلف ضيق مسكن سعيد في"يني بوبلان " في الريف ، عن مسكن "عمر" صديقه في دار سبيطار، ولا بؤس أمة خضرة وعملها طيلة النهار من أجل القوت،عن بؤس عيني و عملها طيلة النهار أمام ماكنتها .

« و حجرة الطين التي يسكنها أهل سعيد تقع في أول الممر الذي يؤدي إلى قرية الفلاحين فكانت خضرة أم سعيد تجلس أمام باب الكوخ و بين ساقيها المتباعدتين طاحونة ما تنفك تديرها.

إن عمر لا يستطيع أن يتخيل هذه الأم إلا عاملة في تدوير هذه الرحى الثقيلة بهذه الطواعية في جسمها، كانت الأم تظل طوال النهار تطحن شعيرا أو ذرة أو فلفل أحمر جافا»[3].

3. عمر و الفقر (اللباس) :

كان معظم الأطفال حفاة الأقدام :

«إن المرء يصادف في كل مكان من الشوارع أطفالا من هؤلاء الأطفال النكرات كعمر يمشون حفاة الأقدام»[4].

أما ثيابهم فهي قذرة و ممزقة :

«و كان عمر يخرج هو و خصومه من هذه المعارك الصبيانية، وقد دميت أنوفهم وأسنانهم و ازدادت ثيابهم القذرة تفتقا»[5].

و لم يكن الصبية الآخرون أكثر حظا منه في ملابسهم :

1- نفسه، ص20.

2– نفسه ،ص64

3- محمد ديب ، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول،(مرجع سابق)،ص181

4- نفسه، ص29

5 - نفسه ، ص17

« وهناك صبية آخرون في الشوارع مثله، و قد تسربلوا بأردية عتيقة مشمورة الأكمام عند القبضتين وانتعلوا أحذية ضخمة واسعة من أحذية الرجال، و شحبت وجوههم شحوبا شديدا»[1].

وأما الأطفال في الريف الذين رآهم عمر في "بني بوبلان" فقد جاوزوا أطفال المدينة في مظهرهم وملابسهم : لقد التقى "عمر"هناك بأطفال أشقى منه من كثرة الجوع و العداء فأكنهم الجراد من فرط هزالهم و نحولهم.

«إن ملابسهم لا تعدو أن تكون خرقا مجمعة ، أما أقدامهم فتحميها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال من الحلفاء ، و ربما ركضوا حفاة بغير شيء في الأقدام أكثر الأحيان»[2].

4. عمر وبرد الشتاء (الدفء) :

كان عمر وأمثاله من الأطفال يعانون من برد الشتاء القارس في تلمسان و رغم ضيق الغرفة فليس فيها أثاث أو زرابي تدفئها، و لا يمكن إشعال الموقد باستمرار لأنه يحتاج إلى الفحم، والفحم ليس متوفرا دائما :

«كان الموقد يخمد في الغرفة المظلمة الرطبة، إن عمر لا يدفئ إلا يديه، أما القدمان فإن فيهما بردا لا سبيل إلى مغالبته، إن بردا ساكنا يخدش جلده خدشا »[3].

وما يعانيه عمر تعانيه أختان عيوشة ومريم ، وأولاد دار السبيطار ومعظم أطفال المدينة

أما أطفال الريف فيعبر أحدهم أثناء إضراب فلاحي بني بوبلان عن أحوالهم :

«وهذا صبي أشقر يبدو في الثالثة عشرة من سنه، عيناه خضراوان و شعره أشعث يأخذ بالكلام فيقول: إن طعامنا الشعير، وفراشنا الأرض العادية، ليست عندنا ملابس، هذا البرنس العتيق هو ردائي الذي أستتر به، وغطائي الذي التحفه»[4].

5. عمر وانعدام الحب والحنان:

---

[1] نفسه،ص351

[2]- نفسه، ص162

[3] - محمد ديب ، الدار الكبيرة ، الحريق، النول، (مرجع سابق)، ص30.

[4] - نفسه، ص304

ويدفع ضيق السكن و الفقر الأولياء إلى الانفعال والصراخ في وجه أبنائهم بدلا من الحب و الحنان، لأنهم لابد أن يفرغوا شحنة الغصب الموجودة في داخلهم، وهكذا ما إن يفتح عمر عينه حتى يسمع من أمه ما تيسر من الشكوى والاحتجاج والشتائم .

« فلما رأته يفتح عينيه ،انفجرت قائلة : "هذا كل ما تركه لنا أبوك، ذلك الرجل الذي لا يصلح لشئ ترك البؤس، غيّب وجهه في التراب، وسقطت علي جميع أنواع الشقاء هو نصيبي طوال حياتي. هو الآن هادئ في قبره .. لم يفكر أبا في ادخار قرش واحد ..ها أنتم تتشبثون بي كالعلق الذي يمتص الدم .لقد كنت غبية. كان ينبغي أن أترككم في الشارع وأن أهرب إلى جبل مقفر »[1].

و بدلا من القبل و العناق، يواجه "عمر" و غيره من الأطفال الضرب و الشتائم أما الضرب. فياويل من تقبض عليه "عيني" من أولادها حين تغضب:

« كانت عيني إذا قبضت على واحد من أولادها سلخ جلده سلخا من شدة الضرب مقبلة على عملها هذا بهمة لا تلين»[2] .

وفي إحدى المرات رمت ولدها في غمرة غضبها بسكين المطبخ :

« وحاولت عيني أن تمسك به من ذراعه، ولكن جهودها ذهبت سدى،فقد تملص منها. وفجأة رمته بسكين المطبخ التى كانت تستعملها في تقشير عكوبها. فأعول الصبي وسل السكين من قدمه دون أن يتوقف، وهرع يخرج من الغرفة والسكين في يده، و لعنات عيني تلاحقه» [3].

أما الشتائم فحدث عنها و لا حرج، وفي قاموس أمه الكثير منها :« وهرب فأسرعت تركض وراءه .ولكنه اجتاز فناء البيت بوثبة واحدة، ووصل الرواق ليهرب إلى الشارع، فلما بلغت أمه الباب، لم يكن في و سعها أن تطارده إلى أبعد من ذلك، لأن حجابها لا يغطى وجهها وفلم تستطع أن تزيد على أن تشبعه بسيل طام من الشتائم و اللعنات»[4].

وأما عمته لالا حسنة فتعيره بأبيه و تصفه بأبشع الصفات و تسخر من طموحه في أن يتعلم ليربح ملا وفيرا في المستقبل، بدلا من تشجيعه و إحاطته بالحنان و الرعاية .

---

1 نفسه، ص30.

2- نفسه ، ص87

3- محمد ديب ، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول ، (مرجع سابق)، ص19

4- نفسه، ص33

«دعك من هذه الأفكار، إن عليك أن تعمل كالحمار إذا أردت أن تعيش فحسب و هل الذين لم يذهبوا إلى المدرسة في يوم من الأيام يموتون جوعا ؟ التعليم ليس لأمثالك يا دودة يا ابن السكير. ما أنت إلا غبار، إلا قذارة تلتصق بنعال كلام الناس»[1].

هذا حال عمر و مريم و عيوشة الذين يعيشون مع أسرهم، أما الآخرون الذين يظلون في الشارع، فهم لا يجدون من يرنو إليهم بنظرة عطف .

«وأهل المدينة يحتقرونهم، و يسيئون معاملتهم، فلا بد أن يفروا في كل لحظة من ضيق الناس بهم، وإنزعاجهم نهم، و هم يتسولون، و يستجدون الأكف في صلاحة قليلة أو كثرة »[2].

6. **عمـر و التـعليـم :**

كان الكبار والبالغون يعيشون في جهل مطبق، منشغلين بلقمة الخبر عن القراءة والكتابة والتعليم ومع هذا فقد كان الناس يعرفون قيمة التعليم، لأذنهم أبناء حضارة عريقة، و ليسوا بدائيين:

«إن العلم يتمتع في بلادنا بتقديس يبلغ من العظم أن أناسا من أدعياء العلم يستغلونه بسهولة كما يستغله أناس من أدعياء النبوة»[3].

ولكن ظروف الفقر جعلتهم ينشئون أميين أبا عن جد.وهذه دلالة حسنة تسأل باستنكار عمر الذي يحلم بإتمام تعليمه :

« أبوك ؟ هل ذهب إلى المدرسة يوما ، و حدك ؟ و أجدادك ؟ و أسرتك كلها ؟ و جميع من تعرفهم من الناس ؟»[4].

كان عمر من القلائل الذين أتيح لهم أن يذهبوا إلى المدرسة ليتعلموا والعلم نور كما يقال فماذا تعلم؟

المدرسة تكمل دور البيت في التربية والتعليم و تهذيب المشاعر، و لكن الأطفال لا يستطيعون في المدرسة الفرنسية في زمن الاستعمار أن يحققوا ذواتهم .

---

1 نفسه،ص75

2- نفسـه ، ص351

3 - محمد ديب، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول ، (مرجع سابق)، ص59

4 - نفسه ،ص75

وأن ينموا شخصياتهم فهي لا تعرفهم بقومهم و بتاريخهم بل تعلمهم بأن فرنسا هي وطنهم الأم

و يعجب عمر من ذلك و يعرف أنه كذب :

وفرنسا رسم ملون بعدة ألوان، و لكن كيف تكون تلك البلاد البعيدة أمه ؟

«إن أمه في البيت، إنها عيني"، و ليس له أمان اثنتان . عيني ليست فرنسا، ليست ثمة أشياء مشتركة بين أمه و فرنسا، و لقد اكتشف عمر الكذبة، فرنسا ليست أمه، سواء كانت هي الوطن أم لم تكن هي الوطن، إنه يتعلم أكاذيب تحاشيا لعصا الزيتون الشهيرة »[1].

إذن فالمدرسة لا تعلم عمر لغته العربية، لأنه حين سأل أحد العمال الحائكين إن كان يحسن القراءة و الكتابة بلغته أجاب بالنفي:

«ها أنت تعرف القراءة و الكتابة؟نعم

و تعرف القراءة و الكتابة بالعربية ؟لا

كيف لا ؟ أتجهل لغتك يا بني ؟

ونظر قوطي الأمين إلى الصبي متفرسا مدهوشا »[2].

وكم تسمح الظروف التى ذكرناها لعمر بمتابعة التعليم بانتظام لأن تكاليفه مرهقة للفقراء ثم أجبرته هذه الظروف على ترك المدرسة بعد أن اقتنعت أمه برأي لالة حسنة :

«أنبأ عمر أمه بأن العودة إلى المدرسة قريبة،إنه في حاجة إلى ملابس نظيفة و إلى كتب إن مطلبنا من هذا النوع هو دائما تمهيد لمشاجرة بينة و بين عيني، صاحت عيني تقول :

دعنا أخيرا من هذه المدرسة لقد ضاقت بها ذرعا أتراك تأمل في أن تصبح وزيرا »[3].

أما الأطفال في الريف فلم يتح لمعظمهم أن يتعلموا القراءة و الكتابة،و قد استغرب

"أطفال بني بوبلان" من معرفة عمر القراءة و الكتابة :

---

1 نفسه ، ص42

2 – محمد ديب، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول ، (مرجع سابق) ، ص 423

3 – نفسه ، ص329

"و قد اكتشف"عمر"بين هؤلاء الصبية من أبناء الفلاحين رفاقا له، لم يمانعوا في قبوله البتة غير أنهم استغربوا أن يعرف القراءة وأن يقول كلاما بالفرنسية،ويعرف الكثير من المعلومات الخاصة، إنه يقول مثلا بأن الأرض كروية لا مسطحة و هذا مخالف للبداهة "[1].

"كانت الأم تفكر في سي صلاح مالك البيت الذي يكره أولاد المستأجرين اشد الكره، كان سي صلاح قد حذر كل الأولاد أن يلعبوا في فناء البيت، فإذا فاجأهم فيها فرق شملهم وراح يقرع أهلهم "[2].

ولم يكن عمرو أقرانه غير الشارع ملعبا لهم، فليس هناك ملاعب رياضية أو نواد ثقافية تربيهم و تهذبهم :

لم يكن عمر يعرف أمكنة للعب غير الشارع، و ما كان يمنعه أحد، خاصة أمه من أن يهرع إلى الشارع حين يستيقظ من النوم .

« لقد انتقل أهله من بيت إلى بيت عشرات المرات، و لكن كان يوجد في كل حي مكان بين الأزقة و المقاسم التي تبني، يتخذه أولاد الحي ساحة للهوهم وعبثهم »[3].

لم يجد عمر في البيت راحته ولا في المدرسة ما يسره، فكان يقضي نهاره في الشارع. «كان عمر يقضي هناك أوقات فراغه، أي النهار كله، ذلك أنه كان في كثير من الأحيان يرى أن ليس في المدرسة ما يشوقه، فيمضي يلحق بالصبية الآخرين »[4].

وبينما غيره من الأطفال في البلدان الأخرى، يلعبون بما يفيد عقولهم وأجسامهم كان عمر وأقرانه يلعبون بالنفايات .

«كانت الأشياء التافهة التي يرمونها إليهم العلب الفارغة، وحطام اللعب والإعلانات المطبوعة، تسكرهم بنشوة الإعجاب فيتنافسون عليها في حنق، يخفي على هذه الأشياء التي لها قيمة عظيمة»[1].

---

1 – نفسه ، ص163

2– نفسه ، ص18

3– محمد ديب، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول ، (مرجع سابق) ، ص27

4– نفسه، الصفحة نفسها

وماذا ينتظر من أطفال تلفظهم بيوتهم لضيقها، و لا يجدون في المدرسة ما يلبي حاجتهم ما ويهذب مشاعرهم، ولا يجدون أماكن للعب والتسلية البريئة فيتولى الشارع تربيتهم. إن الضرب والشتائم في البيت وعصا الزيتون في المدرسة تؤدي أكلها في خلق أطفال مكتوبين يبحثون عمن يسقطون عليه غضبهم وانفعالهم، ومن أجل ذلك تميزت ألعابهم بالعنف والتخريب.

7. عمر والصحة:

لاشك أن الفقر و تجمع الناس في مكان ضيق لا تتوفر فيه الشروط الصحية و لا يسمح لهم بالاغتسال والنظافة الدائمين يورث المرض، ومن أهم عوامل المنصب انتقال العدوى بسرعة في التجمعات السكانية كدار السبيطار .

وعلى سبيل المثال كان المرحاض مشترك بين السكان:«إن المراحيض تقع في المطبخ المشترك ، هذا مكان لا تهدأ الحركة فيه أبدا. ثقب واحد لجميع الناس أمر لا يصدق»[2].

ومن أجل هذا تهيج الحشرات و تجد مرتعا خصبا في دار السبيطار، و منها البق:

«إن البق يخرج مخالبه ويتسلل إلى الفراش وما عليه، متى خيم الظلام لقد رشت الجدران بالكلس، ولكن البق ما يزال يدهم النائمين، كانت عيني تشعل المصباح عدة مرات أثناء الليل فتسحق من هذا البق ما تيسر لها سحقه »[3].

ومن جراء هذه الظروف مات والد عمر بسبب مرض في الصدر« وقد قيل إن الرجل أصيب بمرض في صدره لم يكن أن يشفى منه »[4]. وحتى ابنه "جيلالي أخو عمر مات بالمرض نفسه.

«وما إن، انقضت سنتان على موت الأب حتى لحق به جيلالي وهو في الثامنة من عمره بعد أن أصيب بذلك المرض نفسه»[5].

---

1 – نفسه، ص 352

4- نفسه ، ص68

2 محمد ديب، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول ، (مرجع سابق) ، ص68

3- نفسه ، ص 104

4- نفسه ، ص114

5- نفسه ، ص114

وهكذا نلاحظ أن المرض والهزال بسبب البؤس والجوع والقذارة يتربصان بأبناء دار السبيطار فهذه إذن بيئة عمر الصحية .

8. عمر و اللعب :

اللعب ينمي الجسم، وينشط العقل، ويهذب المشاعر، ويبهج الروح وهو ضروري للطفل كالماء و الهواء و الغذاء، و لكن الطفل الجزائري كان مصنوعا من اللعب فقد كان أطفال دار السبيطار وأمثالهم كثيرون محرومين من اللعب في فناء دارهم .

«في الساعة الحادية عشرة على أبواب المدرسة نفسها، قامت معركة بالحجارة وتتابعت على الطريق الذي يحاذي أسوار المدرسة، إن هذه المعارك العنيفة الدامية أحيانا ،تدوم أياما بكاملها . إن المعسكرين المتقاتلين، و هم صبية من أحياء مختلفة، بضمان عدد من الرماة الممتازين، إن الصبية الذين تتألف منهم جماعة عمر يفوقون الأخرين مهارة و خفة و جرأة .إنهم هم الموهوبون أكثر من غيرهم، رغم قلة عددهم، فإذا قيل أولاد "الرحبية" تصور الناس شياطين لا يطمح أحدهم إلى ردهم إلى الصواب »[1].

أما في غالب الأحيان نلاحظ تحول هؤلاء الأطفال إلى قطعان من الحيوانات تهاجم و تذهب :

«كانوا في هذه الأيام من الشتاء أشبه بقطعان من بنات آوى يهاجمون بعض مستويات الخشب فينهبون منها عددا من الألواح يوقدونها، إنهم يغذون بها نيرانا كبيرة أضرموها في أرض بور، وتجمعوا حولها كبارا و صغارا يطلقون صرخات غريبة تقطع الصمت » [2].

9. عمر والعمل:

لقد دفع الفقروالأفواه الجائعة عمر إلى التخلي عن المدرسة و العمل و هو في سن الثالثة عشرة :

« ومن كثرة ما سخنت أذناه من اللوم و التقريع، بدأ يعمل صبيا في دكان أحد البقالين و لكن السلطات ما بثت أن أغلقت الدكان »[3].

ثم عمل في مصنع نسيج هو في الحقيقة كهف تحت الأرض و في ظروف سيئة :

«هبط عمر الدرجات الأخيرة من السلم الذي و قف عليه، فصار في الكهف إن رطوبة كرطوبة مناخر الحيونات تلتصق بوجهة، أحس الصبي بإختناق، إنه لا يرى شيئا »[1].

---

[1] محمد ديب، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول ، (مرجع سابق)، ص 27

[2] - نفسه ، ص 27

[3] - نفسه، ص383

و هناك كان يتعلم مهنة و لكنه يتلقى الإهانات و الضرب :

«ما إن جلس الأمين إلى نوبة حتى أشار إلى عمر أن يأتى إليه،فلما إقترب منه الصبي

قال: "إصعد إلى السقيفة فائتني بمكوك جيد، إنك نشيط كقرد، فوثب الصبي على السلم راضيا، ولكن ما إن وصل إلى آخر درجة حتى أمسك أحد بساقيه من تحت، فتشبث الصبي بحافة السقيفة و أخذ يصرخ قائلا إنه يوشك أن يسقط على الأرض كان الشاب الأحمر يشده في

إصراروعناد وهو يضحك قل مياو، أنا قطة و إلا لم أتركك »[2]. و يتحمل فظاظة معلمه السكران:

« وفجأة قال بوعنان لعمر مقرعا:ماذا يصل أسبابك بأسبابي حتى تشفق علي و ترثي بحالي ؟." و أنشب يده في عنق الصبي، اذهب . وأعلم أنه يسب على هذه الأرض إلا أوغاد ليس في وسع طرح نوعك أن يبرهن لي خلاف ذلك ؟أأنت تشفق، أنت ؟ماأنت إلا و غد»[3].

ولم يكن عمر وحده يعمل، بل كانت أختاه عيوشة ومريم تعملان أيضا في مصنع للسجاد «إن االبنتين تعملان منذ شهرين في مصنع للسجاد، أصبحت عيوشة تحمل إلى البيت أجر الأسبوع وكذلك مريم، غير أن أجر مريم اقل من أجر عيوشة، لأنها أصغر منها سنا، كانت البنتان تضعان المال الذي تجيئان به في يد الأم»"[4].

وهكذا يبدأ الأطفال حياتهم العملية في سن مبكرة تنذر بمستقبل بأس، و ليس حظ أقرانهم في الريف بأحسن من حظهم :«كان أطفال هذا العالم الحزين مبكرين في نموهم مثل عمر إلا أنّ دراكهم للشفاء يلمع في أعينهم مثلما يلمع في عيني عمر و إن يكن قد حصل لهم ذلك على نحو أخر »[5].

أما الأطفال الأوروبيون فكانوا ينعمون بطفولتهم، و ذلك واضح في هيئتهم و ملابسهم :

1- نفسه، ص 394

2 محمد ديب، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول، (مرجع سابق)، ص421

3- نفسه ، ص 498

4- نفسه، ص122

5- نفسه، ص 163

«إن هؤلاء الأطفال(الجزائرين) يحدقون إلى هذه الملابس الجديدة التى يرتديها الأوربيون ويحدقون إلى أجسامهم النظيفة الصحيحة، ويتفرسون في هيئاتهم التي تدل على أنهم أناس لم يعرفوا الجوع، و أنهم يشعرون جميعا بسعادة الحياة، و يحسون بأنهم في في مأمن من الأخطار، ويتحلون بالأدب واللطف والتذهيب والرفاهية »[1].

ومع أن هؤلاء الأطفال حرموا من كل حقوقهم فإن بعضهم كان بذكائه و حدسه وحس العدالة فيه، يرفض الظلم و يتوق إلى الحرية و إلى نوع أخر من الحياة الكريمة .

«كان عمرلا يقبل الحياة على حالتها التي تعرض له، و كان يحس، لسبب من الأسباب لا يمكن التعبير عنه، أن هناك أخطر شأنا و أعمق قيمة وكان مقتنعا بأنه لا يستطيع أن يصل إلى هذا الشيء و هو بين ذويه »[2].

ولكنه لا يقبل أن يتخلى في الوقت نفسه عنهم، و يتركهم بحثا عن الحياة الكريمة لنفسه فقط لذلك ربط مصيره بمصيرهم : «ولكنه يرفض مع ذلك أن يصل إلى هذا الشيء من دون ذويه، و لم يكن ينبذهم عندما يدخل بيته بل كان يدرك أنه يكون غريبا حيث لا يكونون، لذلك كان "عمر" إذا طاش صوابه غضبا أو يأسا، و لجأ إلى أحضان " دار السبيطار" يحس أنه يدخل روحا كبيرة خافقة ، كانت طفولته تفارقه وما هو الآن إلا ثورة وصيحة بين سائر الثورات و الصيحات »[3].

---

[1] – محمد ديب، الدار الكبيرة ، الحريق ، النول،(مرجع سابق)، ص 352.

[2] – نفسه، 354.

[3] – نفسه، ص 77 .

هذه حالة الأطفال الجزائريين في المدن و الريف و زمن الاستعمار الفرنسي و حالة عمر على وجه الخصوص، و هذه الحالة التي تعكس حرمانه من حقوقه الطبيعية التي تصت عليها الشرائع السماوية في الغذاء و السكن والصحة والتعليم و الحنان و الحب و منع استغلاله في الأعمال المأجورة.

التقييم الإجمالي لموضوع الطفولـة:

غرض الكاتب محمد ديب مزدوج، فهو أولا توعية مواطنيه الجزائريين بمقدار معاناتهم تحت نير الاستعمار، ولا سيما شريحة الطفولة البريئة المحرومة من حقوقها الأساسية في الغذاء واللباس والتعليم والصحة وغيرها من الحقوق وذلك لإذكاء حماسهم في مقاومة الاستعمار و النضال لانتزاع الحرية.

وقد و فق محمد ديب في جعل موضوع الطفولة أحد المواضيع الأساسية في رواية ، لما له من تأثير في مواطنيه الجزائريين و في القارئ العربي و الأوربي و العالمي، كما وفق في تحوير ونقل معاناة الأطفال بصدق وواقعية، لأنه عاش في تلك البيئة و ذاق مرارة البؤس، ومن أجل ذلك نجح في خلق الشخصيات المعبرة عن هذا الموضوع، و لاسيما شخصية "عمر" التى مثلت الطفل الجزائري بحق، في بؤسه وحيويته وذكائه وتساؤلاته وإحساسه بالظلم وجعلنا ننتقل مع عمر وغيره من الأطفال بين البيت والمدرسة و الشارع و الريف و المدينة وفي حركية وتنويع للمشاهد الحية التى نتعرف من خلالها على حياتهما اليومية الشقية .كما جعلنا نحس بجوعهم و بؤسهم، وتحملهم لأقسى أنواع الإهانة والضرب والشتائم في البيت والشارع ونشاركهم انفعالاتهم وانفعالات أسرهم من حزن و غضب و حماس وإحباط مما يبرز إبداعه في و صف الأشخاص و الأحداث، وتمكنه من تقنياتها، كما برع في استعمال الحوار كأسلوب دار السبيطار، في واقعيه وصدق وبعيدا عن التكلف والتعقيد كما تبرز مهارة المترجم (سامي الدروبي) الذي استطاع أن ينقل إلى العربية أسلوب الروائي محمد ديب الجذاب ويمتعنا به .

ونستطيع أن نستدل على موضوعية الكاتب من استعراض الأرشيف المصور في تلك السنوات، والذي يبدو فيه الجزائريون في الريف و المدينة ، وفي مقدمتهم الأطفال كالأشباح من الضعف و الجوع و الهزال .

ويثير فينا موضوع الطفولة عددا من الانفعالات الوطنية والإنسانية، فنحن نتعاطف مع عمر وسعيد و مريم و عيوشة وباقي الأطفال في المدن و الريف .نشفق عيهم، كما نشفق على أسرهم وأوليائهم من أمثال عيني و خضرة و غيرهم ممن لا يستطيعون أن يوفروا لهم الحقوق الأساسية لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

كما ننفر من النظام الاستعماري و من يمثله من المعمرين الأوروبيين الذين يهتمون بأطفالهم و يتسببون في معاناة أطفالنا.و نغضب لما حدث لسكان دار السبيطار وبني بوبلان وغيرهم وكأنه يحدث الآن ، و تأخذنا الغيرة على وطننا الجزائري فنود لو نفديها بأرواحنا كما فداها أجدادنا و أبناؤنا .

أما القارئ العربي فيثير فيه النص مشاعر قومية وإنسانية شبيهة بمشاعرنا ، أما القراء الآخرون فيثير فيهم مشاعر إنسانية هي تعاطف مع المظلوم و إشفاق عليه ، و نفور من الظالم و غضب عليه.

خـاتمـة :

في ختام هذا البحث نود التعرض إلى أهم النتائج التي يمكننا استنباطها من خلال تحليلنا لثلاثية محمد ديب، من خلال صورة الطفل الجزائري فيها إذ يمكننا القول أن :

الرواية جاءت للتعبير عن الواقع إذ أنها رصدت مختلف الظواهرالاجتماعية والانتفاضات والثورات التي عاشتها الجزائر على مر التاريخ أثرت حتما و بشكل كبير في الرواية الجزائرية، ومن جراء الأجواء التي عاشتها بكل ما صاحبها من ردود فعل إيجابية خلقت بشكل عام زخما ثوريا كان له أثره علي الأدب الجزائري و ساهمت كل هذه الظروف في تطوير الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية الجزائرية والتي كانت قد وصلت أوجها في النصف الثاني من القرن العشرين على يد جماعة من الكتاب الذين استغلوا الوسائل التعبيرية كلها على الصعيد الفني ليعطوا للرواية الجزائرية نفسا أكثر وطنية وأكثر تقدمية من أجل أن تظل مكانة الرواية العالمية تلعب نفس الدور الذي لعبته .

إن الأرضية الاجتماعية التي تحرك عليها الروائي تحمل خلفية أساسية فلم يكن اختياره لفئة الطفولة اختيارا عشوائيا ، بل لأنها فئة تمثل المستقبل و هي الفئة التي نشأت حديثا بين أنياب الاحتلال في أوج عصر الاستعمار لتحمل المأساة ، فالمظاهر الاجتماعية الواردة في النص الروائي إنما هي وليدة تلك الظروف التي أراد محمد ديب أن يبرزها .

إن ما يمكننا الإشارة إليه أخيرا هو أن محمد ديب حقق ذاته ووجوده كروائي له وزنه و شهرته (الدار الكبيرة –الحريق–النول) ، فإذا كانت رواية محمد ديب حملت بداخلها جانبا من التاريخ، فإنها قد دخلت في التاريخ تاريخ الرواية العربية عموما و الرواية الجزائرية خاصة من بابه الواسع.

قائمة المراجع:

➢ المصادر:

- عبد الحميد بن هدوقة، الملتقى الدولي التاسع للرواية ، دار هومة،الجزائر.

➢ المراجع :

- أحمد دوغان، شخصيات من الأدب الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- بعلي حفناوي ، أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ، دار الغرب للنشر.
- سعاد محمد خيضر ، الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، بيروت.
- عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، دار الغرب للنشر و التوزيع، 1974.
- عكاشة شايف ،نظرية الأدب ،ديوان المطبوعات الجامعية ،ج3.
- عمر بن قينة،في الأدب الجزائري الحديث،شركة دارالأمة للطباعة والنشر، ط1،الجزائر،1994.
- محمد بن سمينة، في الأدب الجزائري الحديث النهضة الأدبيةالحديثة ، مؤثراتها ، بدايتها، مراحلها، مطبعة الكاهنة، الجزائر،2003.
- محمد كامل خاطب،تكوين الرواية العربية (اللغة ورواية العالم) منشورات وزارة الثقافة ، دمشق،1990.
- واسيني الأعرج ، إتجاهات الرواية العربية في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر،1986.
- يمنى العيد ، فن الرواية العربية بين خصوصية الخطاب وتميز الحكاية ، دار الآداب ط1، 1998.

➢ **الكتب المترجمة:**

- الخليل بن أحمد الفراهيدي "كتاب العين"، تر: عبد الحميدهنراوي ،ج2، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط1، 2003
- جورج لوكاش ، الرواية ، تر : مزراق بقطاش،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
- محمد ديب ،الدار الكبيرة،الحريق،النول،تر:سامي الدروبي، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ،ط1، 1968.

➢ **مذكرات التخرج :**

– الطاهر روابنية ، إتجاهات الرواية العربية في بلدان المغرب العربي(تونس – الجزائر– المغرب)،1985–1986.

– عمار بن زايد ، الرواية العربية الجزائرية عند نقاد الاتجاه الواقعي بين النظرية والتطبيق،2001–2002

– لينة عوض ، تجربة الطاهر و طار الروائية بين الأيديولوجية وجمالية الرواية ، 2003.

➢ **المواقع الإلكترونية :**

-Om-s-ommam-net.

-Www.marefa .org/index.php

الفهرس

مقدمة.....4 – 6
نشأة الرواية العربية.....7
نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية.....8
تعريف الرواية.
تعريف الرواية لغة 11
تعريف الرواية إصطلاحا 11
تحولات الرواية الجزائرية.
قبل الإستقلال .....12 – 13

بعد الإستقلال.....14–15
السيرة الذاتية و الإبداعية للروائي محمد ديب.....16–18
الجزائر في ثلاثية محمد ديب 18–21
شخصيات ثلاثية محمد ديب 21
التعريف بمروئيته كنموذج للطفل الجزائري 22
1– عمر و الجوع .....23 –24
2– عمر و ضيق المسكن 25
3 – عمر و الفقر (اللباس).....26
4 – عمر وبرد الشتاء (الدفء) .....26 – 27 5
– عمر و إنعدام الحب و الحنان .....27 –28 6
– عمر و التعليم .....28 – 30
7 –عمر و الصحة .....31 –32
8 – عمر و اللعب.....32 –33
9 – عمر و العمل..... 33 –35
التقييم الإجمالي لموضوع الطفولة .....35 – 37
خاتمة.

9 – عمر و العمل..... 33 –35
التقييم الإجمالي لموضوع الطفولة .....35 – 37

خاتمة.